لجنة الإمام الجواد عليه السلام

على خطى كربلاء

الشيخ إبراهيم الميلاد

لجنة الإمام الجواد عليه السلام

على خطى كربلاء

الشيخ إبراهيم أحمد الميلاد

على خطى كربلاء

الشيخ إبراهيم أحمد الميلاد

لجنة الإمام الجواد عليه السلام

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م

الإخراج الطباعي:

باســـم البحـــــراني

BIHB2002@GMAIL.COM

+966 503 852248

المحتويات

تقديم ٩

إهداء ١١

المقدمة ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم ١٣

كيف نقرأ كربلاء؟ ٢١

أ- تكليف إلهي ٢١

ب- الخيار النهائي ٢١

ج- الموقف الثابت ٢٢

د- الفتح الكبير ٢٢

هـ- منطق السماء ٢٣

هكذا تفهم كربلاء ٢٤

القيادة الربانية ٢٥

العبقرية الإنسانية ٢٥

التخطيط الشامل ٢٦

الفهم من الداخل ٢٧
دفائن الأسرار ٢٧
في مدرسة كربلاء ٢٨
الإصلاح فريضة ٢٩
الانتصار للقيم ٣٠
لا مواجهة بلا إعداد ٣٢
مسؤولية الإصلاح شاملة ٣٤
ما لله ينمو ٣٦
الدلالات الأخلاقية ٣٩
مفارقة واضحة المعالم ٣٩
النهضة الحسينية ٤٢
الشجاعة الأدبية في مواجهة الباطل ورموز الفساد ٤٤
المحافظة على قدسية الأماكن المقدسة ٤٦
الشفافية والصراحة والوضوح مع الأصحاب والأنصار ٤٨
التمسك بقيمة السلام، ورفض الابتداء بالحرب ٥١
الرفض الصريح ٥٤
الاستجابة الرسالية ٥٤
إتمام الحجة ٥٥

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد...

ما تزال النهضة الحسينية المباركة موضع بحث ودرس للمهتمين، وربما لم تجد قضية تاريخية من العناية والدراسة ما وجدته قضية الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وهذا بطبيعة الحال كاشف للأهمية التي تكتنف هذه القضية ومدى التأثير الكبير الذي خلّفته بعد مرور كل هذه السنوات الطوال.

وكعادتنا التي درجنا عليها في لجنة الإمام الجواد عليه السلام من طباعة كتب تتحدّث عن هذه القضية فقد إرتأينا في هذه المرة طباعة كتاب لسماحة الشيخ إبراهيم الميلاد حفظه الله الذي رحل عنا وأفجعنا بذلك الرحيل تخليداً لذكراه الطيبة ومساهمة منا في نشر نتاجه.

نسأل الله سبحانة وتعالى له الرحمة والمغفرة وشفاعة الإمام الحسين كما نسأله تعالى أن يتقبّل منا هذا القليل بأحسن القبول.

لجنة الإمام الجواد عليه السلام

إهداء

إلى أمل الشعوب

إلى الحجة ابن الحسن المهدي عليه السلام

أهدي هذه الصفحات.

«فلئن أخرتني الدهور، وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك محارباً ولمن نصب لك العداوة مناصباً، فلأندبنك صباحاً ومساءً، ولأبكين لك بدل الدموع دماً، حسرة عليك وتأسفاً على ما دهاك، وتلهفاً حتى أموت بلوعة المصاب، وغصة الاكتياب» .

صاحب العصر والزمان

الحجة المهدي بن الحسن العسكري

-عليه السلام وعجل الله فرجه-

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت كربلاء منذ لحظتها الأولى أكبر من أن يحيط بها عقل أو أن يستوعبها قلب أو أن يسبر أغوارها جيل، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! وهو ما تتكشف لنا أبعاده كلما أطلنا التدبر في الكلمات المأثورة: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله»، «إن للحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»، «ولأبكين عليك صباحًا ومساءً»، وما أشبه ذلك مما هو مقطوع الصدور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين عبروا من خلال كلماتهم ومشاعرهم عما تنطوي عليه «النهضة الحسينية» وأحداثها المفجعة من حقائق ومقاصد وأسرار!.

ولِمَ لا تتبوأ كربلاءُ الدم والشهادة هذه المرتبة من العظمة وتنال هذه القمة السامقة من الشرف وهي التي لم تكن إلا لله -تعالى- نصرة لدينه وإعلاء لكلمته وإصلاحاً لأمور عباده؟!. وهو القائل عليه السلام:«إنما خرجت لطلب الإصلاح».

أوَ ليس هي التي شاء الله فيها أن يرى حسينًا سبط الرسول صلى الله عليه وآله قتيلاً،

وأن يرى نساءه بنات الرسالة سبايا؟!

لقد كانت كربلاء بحق حدثاً تجاوز في وقائعه وتداعياته كلّ العوالم ليكون مهيمنًا وإلى الأبد على كلّ من عالَمي الغيب والشهادة. أوَ ليس نقرأ في المأثور من الأخبار أنه قد بكاه «ما يُرى وما لا يُرى»، وأنه «كل شيء بكى عليه» حتى «الحور في الجنان»، وأنه يوم قتله «ما رفع حجر ولا مدر إلا ووجد تحته دم عبيط»، و«إن السماء بكته دماً ثلاثة أيام»، وأنه «اقشعرت له أظلة العرش»، و «يبكي له جميع الخلايق، وبكت له السماوات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن، وما بينهن، ومَن في الجنة والنار مِن خلق ربنا».

فكيف لا يكون بعد كلّ ذلك اعتقاد راسخ في قلوب المؤمنين بما للحسين عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه وما قد قاموا به وجرى عليهم في كربلاء – من عظمة في الإيمان ونفوذ في البصائر وصلابة في العزيمة وثبات في الموقف بما لا مثيل له ولا نظير، بل بما لا يكون أبداً لمن يأتي من بعدهم فيما كانوا عليه في ذلك وما كان منهم في يومهم العاشورائي المشهود الخالد، «فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي».

ومن ثم فإن لكربلاء الحسين عليه السلام من سعة الأفق في المعنى وبُعد الغور في المقصد ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم وما سواهما من سائر الخلق فليس لهم من ذلك إلا ما كانوا أهلاً لمعرفته مما شاء الله لهم أن يحيطوا

به علمًا أو أن يُرزقوه، «فليس العلم بكثرة التعلم إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، ونور الإمامة في صفاتها وأحوالها ليس بأعظم منه نور بل هي الحكمة ومن أوتيت له فقد أوتي خيراً كثيراً.

من هنا جاءت البينات النبوية تترا في بيان فضائل السبط الشهيد بكربلاء وما هو عليه من خصائص ومناقب وما له من علو الدرجات وسمو المراتب في عالَمي الغيب والشهود إظهاراً لعظمته وتعريفاً به وتبييناً لفضله وما له من عظيم الإحسان. قال رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين. أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً. حسين سبط من الأسباط».

«إن الحسن والحسين شنفا «قرط يلبس في أعلى الأذن» العرش، وإن الجنة قالت: يا رب، أسكنتني الضعفاء والمساكين؟ فقال الله لها: ألا ترضين أني زينت أركانك بالحسن والحسين؟ قال: فماست «الميس: التبختر» كما تميس العروس فرحاً».

عن أم سلمة- رضي الله عنها - قالت: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالس والحسين عليه السلام جالس في حجره إذ هملت عيناه بالدموع، فقلت له: يا رسول الله، مالي أراك تبكي، جعلتُ فداك؟! فقال: «جاءني جبرائيل عليه السلام فعزاني بابني الحسين، وأخبرني أن طائفة من أمتي تقتله. لا أنالهم الله شفاعتي».

وروي: «أن النبي ﷺ كان ذات يوم جالساً وحوله علي وفاطمة والحسن والحسين -عليهم السلام-، فقال لهم: «كيف بكم إذا كنتم

صرعى وقبوركم شتى؟ فقال الحسين عليه السلام: أنموت موتاً أو نقتل؟ فقال: بل تقتل يا بني ظلماً، ويقتل أخوك ظلماً، وتشرد ذراريكم في الأرض، فقال الحسين عليه السلام: ومن يقتلنا يا رسول الله؟ قال: شرار الناس. قال: فهل يزورنا بعد قتلنا أحد؟ قال: نعم، طائفة من أمتي يريدون بزيارتكم بِرِّي وصِلَتي، فإذا كان يوم القيامة جئتهم إلى الموقف حتى آخذ «بأعضادهم فأخلصهم» من أهواله وشدائده» .

هذا ولقد كان من الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم من سنة «٦١» من الهجرة النبوية على صعيد كربلاء من أرض العراق ما قد كان فقدم أصحابه أولاً حيث أبوا أن يتقدم عليهم أحد، ثم أهل بيته الذين أبوا إلا أن يقوه بأنفسهم وأن يفدوه بأرواحهم قرابينَ شهداءَ الدين والفضيلة والبطولة، ثم تقدم هو بأبي وأمي مسلطاً سيفه ووجهه يتلألأ نوراً حتى قضى شهيداً في أروع مشهد ملائكي طهراً وعفافاً وصدقاً ومروءة، فكان بذلك المدافع الأول عن عقيدة مهددة بالتحريف وشريعة على وشك أن تبدل وعن كتاب كادت تمسخه أيدي المتأولين من بني أمة والشجرة الملعونة في القرآن «فأعذرَ في الدعاء، ومنح النصح، وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة».

وستبقى كربلاء بعد انفجارها المدوي في وجه الانحراف والتضليل والتجهيل الأموي شمساً مشرقة متوهجة بالنور في أفق الزمن لا يحجب نورها شيء ولا يكدره عبث العابثين ومن ثم فإنه لا غروب لها أبداً! تماماً

كما نطقت بذلك شقيقة الحسين عليه السلام وشريكته في نهضته -مولاتي رائدة الموكب الحسيني وعقيلة بني هاشم العالمة زينب بنت علي بن أبي طالب عليه السلام في مجلس يزيد بالشام دافعة لأمانيه الكاذبة وأحلامه المزيفة في إطفاء نور الله ودرس معالم الرسالة والقضاء على خط بيت النبوة: «فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين..».

وعلى عكس ما أراده الأمويون وخططوا له من «محو الذكر، وإماتة الوحي» بقيت العقيدة صافية من أفكار الجبر الأموي وبقي حلال محمد حلالاً وحرامه حراماً شريعة إلهية تتدين بها الأمة وبقي خط أهل البيت عليهم السلام بنص «حديث الثقلين» الترجمان الناطق لكتاب الله العزيز يشق طريقه إلى القلوب الصادقة والضمائر الحية لا توقفه تحديات الأعداء ولا تثنيه مؤامرات المناوئين بل هو في توسع وانتشار ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ**﴾.

هذا وستبقى كربلاء وعاشوراء - كما هي أبداً - للأمة بل لكل العالم المشعل المنير والمنار المضيء الذي يفتح العقول على نور المعرفة والقلوب على هدى الحق والخير والفضيلة.

وستبقى كربلاء بالرغم من كل تشكيكات أصحاب النفوس الصغيرة والإدراك المحدود للحقائق الكبرى الروحَ المتوثبة التي تحرك القلوب

وتفجر العواطف وتنير دروب الثائرين والمصلحين ومن لديه تطلُّع لواقع أفضل للأمة والأجيال.

وستبقى كربلاء بكل عطائها الخالد قيمة أخلاقية تزكِّي النفوس وتصقل الإرادات وتنور الأرواح المتطلعة للكمال الروحي والسمو المعنوي.

وستبقى كربلاء الحسين عليه السلام الصرخة التي توقظ النائمين وتنبه الغافلين وتقض مضجع المستكبرين والمفسدين أينما كانوا.

وستبقى كربلاء العقد الفريد المشع بنور الشهادة والمتلألئ بعبق الفضيلة والناطق أبداً بِسَنَا الحق الإلهي الخالد.

وستبقى كربلاء يوماً لم يكن قبله ولا يكون بعده يوم مثله أبدًا «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله» وهو سر خلودها وينبوع عطائها الثر الذي لا نهاية له أبداً.

فما أحوج الأمة والعالم اليوم إلى التوجه إلى كربلاء والالتفاف حولها مدرسة في الإصلاح والتغيير، لتستنير بنور هديها الإلهي وتتحلى بقيمها الإنسانية وتتخلق بفضائلها الأخلاقية.

إن هذا التوجه والالتفاف حول كربلاء سيكسب العالم البصيرة في الرؤية، والثبات في الموقف، والاستقامة على قيم الخير والفضيلة، وهو ما لا يمكن أن تتحقق التطلعات السامية والأهداف النبيلة في الإصلاح والتغيير نحو الأفضل إلا بالإيمان بها والالتزام العملي بها.

إن الدخول إلى عالم التغيير والإصلاح والشروع فيه من دون فكرة شاملة وقـدوة صالحة يعني المزيد من الحيرة والكثير من الأخطاء والانحرافات التي ربما قادت الأفراد والمجتمعات والدول إلى فتن عمياء قد تنتهي بها إلى حروب أهلية طاحنة لا يعلم مداها وتكلفتها إلا الله – تعالى–. إن كربلاء وحدها –وهي من أعظم تجليات الرسالة والسير على خطى الرسول ﷺ– القادرة من خلال قيمها ومبادئها أن تهب كل المتطلعين والمتصدين والمشاركين في عمليات الإصلاح والتغيير في الأمة والعالم البصيرة النافذة في المنطلقات والأهداف والوسائل مما يجعل عمليات الإصلاح والتغيير بأنواعها المتعددة وأطيافها المختلفة أقربَ إلى طبائع الأمور وأوفق بسنن الله في التاريخ والمجتمع والإصلاح الحقيقي والشامل. لقد اشتملت كربلاء الدم والشهادة على قصر مدتها الزمنية –حيث لم تستغرق سويعات من الزمن– على كنوز دفينة من الأسرار والمقاصد والحكم العقائدية والتشريعية والقيمية والسياسية والعسكرية والعاطفية والأدبية والإنسانية والإعلامية ما سيجعل من الاطلاع عليها والإحاطة بأصولها وأساسياتها ضمانة لرؤية واضحة وأهداف مشروعة وإستراتيجية صائبة في الإصلاح الشامل والتغيير الجذري.

لقد استطاع الإمام الحسين عليه السلام بما هو عليه من إمامة إلهية وعبقرية إنسانية أن يجمع على صعيد واحد وزمان واحد من التخطيط والتدبير والتنفيذ ما قد جعل من نهضته الإلهية الخالدة «كربلاء» جامعة عملاقة

تشع بنور البصيرة وتتفجر بينابيع الحكمة لكل المصلحين الشرفاء والمتطلعين للحرية والعدالة والحق والاستقلال.

وهو الأمر الذي يتوقف على تحقيقه وبلوغه من جملة ما يتوقف عليه أمران: الأول: أن تُقرأ كربلاء كما أراد لها الإمام عليه السلام.. أن تُقرأ لكيلا تفهم إلا على وجهها الصحيح «نهضة إصلاحية شاملة وخالدة»، والثاني: الالتزام الدقيق والانضباط الشامل بمبادئها وقيمها المنبثقة من الوحي الإلهي. وهو ما قد تتكفل ببيان شيء منه هذه السطور بعد أن أُعِدَّت لتكون في إطار واحد بعنوان «على خطى كربلاء»، وهما دراستان تم من قبل نشرهما متفرقتين، وقد ارتأيت أن أعيد النظر فيهما من جديد مع التدقيق في مصادر النصوص والتثبت من صحتها، راجياً من المولى أن يبارك فيها وأن يجد القارئ العزيز فيها ما يعرِّفه بنهضة الإمام الحسين عليه السلام وما تحْمِله للعالم من حقائق وأخلاق، إنه سميع الدعاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم الميلاد

٢٧/ ١٢/ ١٤٣٣هـ

القطيف

كيف نقرأ كربلاء؟

منذ اللحظات الأولى لانفجارها الدموي المدوي دخلت كربلاء الملحمة الإلهية وجدانَ الأمة وتاريخَ الإنسانية ولا تزال كما كانت يوم ميلادها نهضة إصلاحية وحركة تغييرية لا تقف عند حدّ ولا تنثني أمام عقبة. فكيف ينبغي أن تفهمها الأمة والأجيال؟ وكيف نحول حقائقها إلى خطى ومواقف؟

قبل اقتحام تفاصيل الإجابة لا بأس بالتأكيد على جملة الحقائق التالية:

أ- تكليف إلهي

كربلاء تكليف إلهي قد تم امتثاله على النحو الأكمل وليست قدَراً إلهياً بالمعنى السلبي، وهو المعنى الذي ينبغي أن تحمل عليه الكلمة المشهورة للإمام الحسين عليه السلام: «شاء الله أن يراني قتيلاً.. وشاء الله أن يرى النساء سبايا» ، فالمشيئة هنا بصفتها التشريعية لا التكوينية! والعصمة بمفهومها الصحيح لا تمنع من هذا الانصراف ولا الحمل عليه.

ب- الخيار النهائي

لم يكن ثمة في البين ما هو أفضل مما كانت عليه كربلاء كخيار «تكليف» في المواجهة ضد النفاق الأموي السفياني اليزيدي وهو ما يمكن فهمه من جهة المعرفة بمقام الإمام الحسين عليه السلام وما قد صرح به في أقواله من قبيل: «لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد» ،وقوله عليه السلام: «ألا وإن الدَّعِي ابن الدَّعِي قد ركز بين اثنتين بين السِّلة والذلة، وهيهات منا الذلة» . فلم تبقَ إلا المواجهة، وصلح الإمام الحسن عليه السلام تكليفه، واختلاف الأئمة عليهم السلام في الأدوار لا الأهداف.

ج- الموقف الثابت

لم يُحدّث الإمام الحسين عليه السلام نفسه طرفة عين في تغيير ما هو عازم عليه من رفض البيعة «ليزيد» وطلب الإصلاح في «الأمة» مهما بلغت التضحيات وكان الثمن! وبقي على هذا الموقف حتى نال وسام الشهادة وكلّ ما يمكن أن ينقله بعضُ المؤرخين مما قد يخدش هذه الحقيقة فهو مردود مدفوع بحقائق العقيدة والتاريخ على حد سواء. ومن جملة كلامه عليه السلام الدال على هذه الحقيقة قوله: «كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء...» ،وقوله لبني هاشم: «من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق لم يبلغ الفتح، والسلام» . فتدبر تنكشف لك الحقيقة!.

د- الفتح الكبير

إن كون كربلاء مأساة دامية لا يعني عدم انتصارها في وجه النفاق

الأموي وما كانوا يتطلعون إليه من أهداف تاريخية مناوئة للرسالة الإسلامية، بل على العكس من ذلك تماماً؛ لأنه لولا الثبات على المواقف في وجه الطغيان اليزيدي وتقديم كلّ هذه التضحيات «القتل، والسبي» لما كان ثمة سبيل لتحقيق النصر المظفر وبلوغ ذلك الفتح الكبير! وقد بلغ النفاق الأموي من التضليل والتجهيل درجة فقدت فيها الأمة البصيرة في دينها والإرادة في عزيمتها «ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه..» كما وصفهم الإمام عليه السلام في التحريض على النهوض والإصلاح!.

لقد انتصر بحق – كما يقال دائماً – في كربلاء الدمُ على السيف، والنورُ على الظلام.

هـ- منطق السماء

لقد عبرت كربلاء بكل ما تنطوي عليه من معاني الخير والفضيلة والسمو عن منطق السماء وفلسفة التاريخ بما ليس له مثيل في أيام الله مما كان عليه الأنبياء والأوصياء عليهم السلام من جهاد وتفاني وعطاء، ومن ثَم كانت بكل تفاصيلها ملحمة إلهية دامية وخالدة لا تزيدها منعطفات الأيام وكرُّ الليالي إلا توهجاً وتألقاً وحرارة في قلوب المؤمنين الأحرار، وهو ما يمكن أن نفهمه كأحد معاني كربلاء من مقولة الإمام الحسن عليه السلام لأخيه الإمام الحسين عليه السلام: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله» وهي بإطلاقها تثبت

ما وصفناه بياناً وزيادة.

أقول: إذا اتضحت هذه الحقائق عن كربلاء الإمام الحسين عليه السلام وعاشوراء، فلنمض لما قد طرحناه من أسئلة في هذا الصدد.

هكذا تفهم كربلاء

على الرغم من أن واقعة كربلاء كحادثة تاريخية لم تتجاوز سويعات من الزمن -حيث التقى الجيشان على ما بينهما من تفاوت ملحوظ بشكل كبير في العدة والعدد! ودارت معركة دامية أسفرت عن مقتل الإمام الحسين عليه السلام وجميع من كان معه من الرجال ما عدا ابنه علي السجاد عليه السلام! ومن ثم سَبْي بنات الرسالة - إلا إنها -كربلاء- ذات تفاصيل كثيرة ربما يصعب الالتفات إلى الكثير منها وإحصاؤه.

وبالتالي، فإن ثمة مستويين وخطوتين على طريق فهمها كحادثة تاريخية من قبل كلّ المهتمين بها من أصحاب النظر والولاء:

المستوى الأول: استقصاء تفاصيلها كواقعة تاريخية ضمن زمانها ومكانها ومراحلها ورجالها وحوادثها وهو ما يمكن أن تتكفل به كتب المقاتل والتاريخ والسير- على أن تؤخذ تلك التفاصيل من الكتب المعتمدة والمصادر الموثوقة والمراجع الأصح لما سيكون لها بالغ الأثر بل أساسه في عملية التحليل والفهم-.

المستوى الثاني: كون منهجية التعاطي مع حقائق الواقعة وحوادثها

التاريخية تلك مناسبةً من حيث النوعية والدقة والشمول والفاعلية مع هكذا نوعية من الحوادث البالغة الأهمية والعمق والتعقيد، وذلك باعتبار أن المنهجية المختارة والمعتمدة تشكل الإطار الذي تنصهر فيه معطيات تلك المعلومات الخام المنتقاة بكلّ تثبت وعناية.

وهذان المستويان ربما اجتمعا كما هو الحال في الدراسات التاريخية التحليلية، وربما افترقا كما هو حال الدراسات التاريخية المحضة، ولكن ما يهمنا على مستوى فهم الأمة لكربلاء الدم والشهادة هو أن تؤخذ الضوابط التالية في فهمها ليكون الفهم لها مستقيماً في مقدماته ونتائجه:

- **القيادة الربانية**

إنها بقيادة شخصيةٍ ربانية معصومة مستقيمة بتأييد وتسديد من السماء في كلّ ما هي عليه من أقوال وأفعال «إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة» . وبالتالي، فهي منزَّهة عن كلّ ما من شأنه أن يبعث في النفوس شيئاً من الشك في صحة وحقانية ما تقوله أو تفعله، ولا يجوز بحال فهم شيء مما يتصل بنهضة كربلاء من دون الالتفات إلى هذه الحقيقة وأخذها بعين الاعتبار في التعاطي مع المعلومات الواصلة وتحليلها والاستنتاج منها في الحكم لكربلاء أو عليها.

- **العبقرية الإنسانية**

وحتى لو لم نأخذ تلك الحقيقة الآنفة الذكر بعين الاعتبار في مجال

محاولة فهم النهضة الحسينية، فإنه لا يمكن بحال تجاهل ما كانت تتمتع به شخصية الإمام عليه السلام من عبقرية وخبرة وفهم نادر لسنن الكون والحياة والمجتمع وتجارب كثيرة في الحرب والسلم «كان مع أبيه في حروبه» ومعرفة معادن الناس وما هم عليه من طبائع وميول وبالتالي نقاط قوة وضعف، وهو الأمر الذي يمكن أن يجعل الإمام عليه السلام في منتهى القدرة والدراية لما يجري حوله وما هو قادم عليه ويريد القيام به في مرحلة هي الأخطر في حياة الإسلام والأمة.

- **التخطيط الشامل**

وعلى الرغم من هاتين الخصوصيتين البارزتين في شخصية الإمام عليه السلام وحياته الشريفة إلا أنه لم يبتعد في تشخيص الأوضاع واتخاذ المواقف مما كان يجري حوله وفي الأمة عما يسلكه أهل العقل والحِجى والحكمة بحسب العادة في مثل ما قد نوى الإمام عليه السلام القيام به والعمل على تنفيذه، وهي السمة التي يجدها كلّ أحد ممن قرأ سيرة نهضته المباركة منذ لحظتها الأولى وإلى آخر رمق من حياته الزاخرة بالبطولة مما يجعل المتتبع على يقين بأن الإمام عليه السلام لم يرتجل كلمة هنا ولا موقفاً هناك بل كلّ شيء قد خطط له بعقل كبير وحكمة بالغة وصبر وأناة ودقة وعناية، وهو ما كان له دور أساسي في أن يكون لنهضته هذا التأثير في النفوس وهذا الحجم اللامحدود من النجاح والخلود.

- **الفهم من الداخل**

أن يكون الفهم لكل ما يتصل بالنهضة الحسينية من داخل مدرسة أهل البيت ﷺ لا من خارجها كالمدارس المقابلة مهما كان لونها أو شكلها، وذلك غير أنه أوفق بالموضوعية والعلمية - باعتبار أن أهل البيت ﷺ أدرى بما فيه وأقدر على تفسير ما يقومون به ويتخذونه من أعمال ومواقف -، فإنه أدعى للاطمئنان بما يمكن الانتهاء إليه من معلومات ومعطيات ونتائج وأحكام وهو ما قد أكده أهل البيت ﷺ في غير موقف وموطن تأسيساً للمنهجية العلمية في مجال التعرف عليهم وعلى سيرتهم وحياتهم وفضائلهم ومناقبهم وخصائصهم «يا كميل، لا تأخذ إلا عنَّا تكن مِنَّا»، وأهل البيت ﷺ لم يألوا جهداً في التعريف بأنفسهم بشكل عام والتعريف بالإمام الحسين ﷺ ونهضته المباركة بشكل خاص.

- **دفائن الأسرار**

لأكثر من سبب وحيثية ستبقى النهضة الحسينية مكتنفة بالحِكَم والمصالح والأسرار الكثيرة والمتنوعة التي سيتكفل الزمن والأجيال جيلاً بعد جيل بالكشف عنها والتعرف عليها وإبرازها للعلن وهكذا فهي أكبر من أن يُحاط بها في زمن أو جيل أو جهة، وبالتالي ينبغي مدارستها أبداً والتفقه في متون أقوالها وبنود أفعالها على طول الخط والالتجاء إليها كلما رمنا قبساً من نور أو سبيلاً للنجاة فإنها مصباح هدى وسفينة نجاة،

وعليه ينبغي التوغل في حقائقها برفق وعدم التسرع في الحكم عليها أو لها من دون حجة واضحة أو بينة قاطعة من نص صريح أو قرائن جلية يركن إليها العقل وتسكن لها النفس ويطمئن بها القلب السليم وربما كان الجامع لأسباب ذلك كله أن كربلاء كانت لتبقى، فعطاؤها خالد، ومعين المعرفة بها لا ينضب أبداً!.

هذا ما نراه أهم ما ينبغي الالتفات إليه من ضوابط لكلّ عملية فهم لأي جانب من جوانب هذه الملحمة الإلهية الخالدة.

في مدرسة كربلاء

إنما كانت كربلاء في تاريخ هذه الأمة لتبقى مدرسة خالدة للأجيال تلهمها روح الجهاد والممانعة في وجه كلّ انحراف وظلم، وتفتح لها آفاقاً واسعة ورحبة في فهم الدين والحياة بعيداً عن الأهواء المتضاربة والآراء المتصارعة.

ولا يخفى على المتتبع لحوادثها وتداعياتها ما تنطوي عليه هذه المدرسة من دروس وعبر حتى غدتْ منهلاً للثوار ومشعلاً للأحرار يتفيؤون ظلالها ويستضيئون بنور هديها في منعطفات الحياة وبين يدي تحدياتها الكبرى. ولكن، ماذا ينبغي أن تتعلمه أمتنا اليوم من دروس عاشوراء وكربلاء الإمام الحسين عليه السلام على ضوء ما تعيشه من حاجات مستجدة وتحديات متجددة تلف حياتها وتكاد أن تهيمن على واقعها برمته؟!

إذا كانت «كربلاء» الدم والشهادة على طول تاريخ هذه الأمة وأجيالها هي المرجع، وعليها المعول بالنسبة لكلّ الثوار والأحرار والمصلحين، حيث يستلهمون منها الروح المتوثبة للحق والحرية والعدالة، فإن أمتنا -وجيلنا المعاصر بالتحديد- بأمس الحاجة إلى أن يتعلم من كربلاء الحقائق والقيم التالية:

الإصلاح فريضة

ليست كربلاء في جوهرها وأهدافها البعيدة إلا مشروعاً إصلاحياً قد وقف بكلّ عزيمة وحزم في وجه الطغيان الأموي الذي جعل من «مال الله دُولاً، ومن عباده خَولاً» ولم يرضَ بكلّ ذلك حتى أصرَّ على أن يجعل «يزيد بن معاوية» خليفة على المسلمين وهو «رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة» لا يملك شيئاً من مؤهلات الخلافة والإمارة، فما كان من الإمام الحسين عليه السلام إلا الوقوف في وجه المؤامرة الأموية الجديدة برفض البيعة مطلقاً وكشف حقيقة «الشجرة الملعونة في القرآن» وإن الخلافة محرمة على آل بني سفيان بالنص النبوي الجلي وبالتالي «مثلي لا يبايع مثله» و«على الأمة السلام إذا ولي يزيد أمور هذه الأمة» وهو معنى قوله عليه السلام «وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر..» .ولأن الإمام عليه السلام في عقيدته هو أولى من غيَّر - كما قال هو -،

لذلك كان منه القيام في وجه الظلم الأموي والاستهتار اليزيدي بشؤون الدين وأمور المسلمين.

وهو أحد تلك الدروس التي على كلّ جيل ولاسيما جيلنا المعاصر أن يُحسن فهمها ويعي دلائلها وهو يعيش مختلف ألوان وأشكال الظلم والعدوان على دينه وحريته ومقدساته. فكيف ينبغي أن يكون الموقف وكيف ينبغي أن يكون التصدي والمواجهة لكلّ ذلك؟

إن «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وأن «الساكت عن الحقّ شيطان أخرس»، ولقد رأينا ما قد قدمه الإمام عليه السلام وأهل بيته وأصحابه من الرجال والنساء والأطفال من تضحيات قلَّ مثيلها، بل لا مثيل لها «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله» دفاعاً عن الحقّ المغصوب ودين الله الذي قد لبسه الأمويون لبس الفرو مقلوباً! ونصرة لكلّ الذين نالهم الظلم الأموي والجور اليزيدي، فكان ما كان من أمر قيامه عليه السلام ومطالبته بالإصلاح وتقديمه كلّ ما يملك حفظاً للدين وصوناً لشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ودفاعاً عن كلّ مظلوم ومقهور. «ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه،فليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً» ،فهل تعي أمتنا وجيلنا هذا المنطلق الذي انبثقت منه شرارة كربلاء فتحولت إلى إعصار من نار أحرق العرش الأموي ودمر كبرياءهم وجبروتهم؟!

الانتصار للقيم

كربلاء هي تلك القيم الإلهية التي بشَّرت بها الأديان السماوية والشرائع الربانية وأكملها دين الإسلام وأتمها القرآن. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» «أخلاقه القرآن» «حسين مني وأنا من حسين» ، وقد تجسدت تلك القيم والفضائل في رجال كربلاء والمشاركين فيها كلّ بحسب قابلياته واستعداداته وتجلَّت في أقوالهم «الخطب - الرجز - الشعر - المواعظ» وكذا كشفت عنها في أروع المواقف أفعالهم حتى قال فيهم الإمام عليه السلام: «فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي» ، ولاشك في أن تلك القيم والمبادئ كالحق والحرية والعدالة والإيثار والتضحية والعطاء وغيرها كثير هي التي انتصرت في تلك المواجهة الدامية على الرغم من أن معسكر الإمام الحسين عليه السلام قد قتل رجاله ولم يبقَ منهم أحد! بل وقطعت رؤوسهم وعلقت على أسنة الرماح... لكن تلك السيوف التي كانت تقطر حقداً وكراهية لآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله «نقاتلك بغضاً منا لأبيك» وتلك الرماح والنبال السوداء بالضغينة لم تتمكن أن تصل إلى تلك القيم وأن تنال منها حتى بمقدار «الخدش» وبقيت في مكانها الأعلى كما شاءت لها السماء حية فاعلة متألقة تنال من الأعداء وتأخذ منهم كلّ مأخذ حتى كشفتهم على حقيقتهم وأظهرت المكنون من نفاقهم والمستور من نياتهم السوداء في مقاتلة الصفوة من آل الرسول صلى الله عليه وآله ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ فهؤلاء الأبرار الأحرار قد

نالوا بشهادتهم بين يدي ابن بنت نبيهم ﷺ الحياة الخالدة والبقاء الأبدي وتحولوا إلى عناوين مشرقة متوهجة تشير إلى تلك القيم الإلهية التي ستبقى إلى الأبد تزين حياة الإنسانية بألوان الحرية وأطياف الكرامة ومشاعل الحق والعدالة.

وما أحوج البشرية فضلاً عن عموم المسلمين وخصوص الموالين والمحبين إلى أن يتعرفوا على تلك القيم الحسينية الكربلائية العاشورية، وأن يرتقوا بأرواحهم إلى مستوى ما تتسنمه من قمم الفخر والشَّمَم لعلهم يتمكنون -اليوم بالذات- أن يعوا ذواتهم ويعرفوا ما حولهم، وبالتالي مواضعَ أقدامهم في عالم تزدحم فيه قيم المادة وتطغى عليه نوازع الشر. إن وراء كلّ مقولة وفعل وموقف في مدرسة كربلاء قيمة عليا وفضيلة مثلى ينبغي التعرف عليها والالتزام بها والسير على هديها في دروب الحياة ومنعطفاتها وأمام تحدياتها المتجددة.

لا مواجهة بلا إعداد

المواجهة بين الحق والباطل من ثوابت الحياة وسننها الحتمية لاستحالة اجتماعهما وارتفاعهما كما هو معلوم بالبديهة، ولكن لا يكفي من الناحية العملية لغلبة الحق على الباطل كونُ الأول حقاً والثاني باطلاً بل طبقاً لقانون السببية العام ينبغي الإعداد لكلّ معركة في كلّ مواجهة بينهما - إعداداً موضوعياً لا يتجاهل شيئاً من الشروط اللازمة للانتصار في

أي معركة تاريخية تجري على الأرض-. وهذا ما نراه جلياً ومما ينبغي أن تتعلمه الأمة والأجيال في مدرسة كربلاء الخالدة، فإلى جانب معرفة الإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه من أهل بيته وأنصاره بما هو تكليفهم الشرعي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتالي رفض البيعة وعدم القبول بها، وبالرغم من معرفته عليه السلام وتعريفه لهم بما ستؤول إليه الأمور على أرض كربلاء في اليوم العاشر من المحرم إلا أنه عليه السلام لم يألُ جهداً ولم يذخر رأياً ولا خبرة إلا واعتمدها في التخطيط لنهضته الإلهية والإعداد الدقيق لكلّ ما يمكن أن يقف أمامها أو يعترض طريقها فلم يكن ثمة ما يمكن أن يتفاجأ به في نهضته المقدسة وذلك من لحظة بلوغه نبأ هلاك معاوية وإلى آخر رمق من حياته الشريفة مروراً بتواجده في مكة طيلة المدة المناسبة واستقباله لكتب أهل الكوفة وتكليفه لابن عمه مسلماً باستعلام نياتهم وعدم القطع بأمر دون مراجعته وطريقة استقباله وحواره للجيش الذي كان على إمرته «الحر الرياحي» «اسقوا القوم، وارووهم من الماء، ورشفوا الخيل ترشيفاً» وكذا ما كان منه عليه السلام من أمر تواجده على أرض كربلاء واتخاذ كافة التدابير الاحترازية ليلاً وقبل نشوب المعركة واصطدام الجيشين حيث جمع الخيام وحفر الخندق وأضرمه ناراً قبيل المعركة وحيث نظم أصحابه أفضلَ تنظيم و أوصاهم بكلّ ما ينبغي أن يكونوا عليه من إيمان وثبات وشجاعة كما أوصى عقيلة بني هاشم عليها السلام ومن حولها من النساء والأطفال بما ينبغي أن يكونوا عليه من استعداد ويقين وتسليم

وصبر وأن الله حافظهم مهما تعاظمت عليهم المصائب كما حدد لهم وظيفتهم ورسم لهم ما ينتظرهم من أدوار وهم في ركب السبايا وهكذا أسرَّ لابنه زين العابدين عليه السلام ما يهمه من أمر الإمامة والأمة...

وبالنتيجة، فإن المتتبع لدقائق نهضته المباركة يرى بأنه ليس من شيء إلا وكان للإمام عليه السلام فيه نظر واضح وخطة متكاملة، وهذا لعمري من أعظم ما تزخر به المدرسة الكربلائية من دروس وعبر في الإصلاح والتغيير، وهو ما ينبغي أن تلتفت إليه وتتعلمه الأمة وأجيالها المتلاحقة في مختلف مجالات حياتها ولاسيما في مواجهتها الحضارية العامة.

مسؤولية الإصلاح شاملة

من يتأمل كربلاء فيما كانت عليه ممن قد قام بها وشارك فيها وساهم يلاحظ التنوع الرائع الذي شكل جبهتها، وكان عماد معسكرها من الرجال والنساء والأطفال وهم من أمصار متعددة وقبائل وعشائر متنوعة وهو النسيج الذي تفاعلت عناصره روحياً وعملياً على صعيد واحد وفي زمن واحد وفي وجه عدو واحد حتى تمكن من أن يسطر ملحمة لا أروع منها في البطولة والتضحية والفداء من أجل الله والحق والحرية والعدالة فكانوا بذلك شهداء العقيدة والفضيلة بكلّ ما تحمله هذه الكلمات من معان سامية، فإلى جانب قائدها الفذ العظيم سيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطه وهو من أعرق البيوت

وأشرفها نسباً وحسباً ومن حوله أقمار بني هاشم ممن بلغوا الذروة في الطهر والنزاهة وصفات الكمال كأخيه العباس وابنه علي الأكبر وابن أخيه القاسم عليهم السلام أقول: إلى جانب هؤلاء «الحسين وأهل بيته عليهم السلام»، تجد في كربلاء «الأصحاب» ممن اقتحموا العقبة ونالوا شرف القتال والشهادة بين يدي إمام زمانهم كحبيب الصحابي الفقيه والمجاهد الكوفي وجون مولى أبي ذر وهو عبد أسود كان في ضيافة بيت الإمام عليه السلام وخدمته و «برير بن خضير الهمداني، وكان شيخاً تابعياً ناسكاً» و«عابس بن أبي شبيب الشاكري، وكان رئيساً شجاعاً خطيباً ناسكاً متهجّداً» و «أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي، وكان تابعياً ومن فرسان العرب ووجوهها» و أنس بن الحارث الكاهلي الأسدي وهو صحابي كبير السن شهد بدراً وحنيناً بكى له الإمام الحسين عليه السلام لما رآه وقد برز إلى القتال لما كان عليه من هيئة وغيرهم من الأخيار كزهير بن القين ومسلم بن عوسجة ممن قدموا أنفسهم قرابين لله تعالى بين يدي إمامهم الحسين عليه السلام فنالوا بذلك شرف الدين والدنيا، وإلى جانبهم كن النساء المخدَّرات من بنات علي وفاطمة عليهما السلام من بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ومعهن لفيف من نساء بعض الرجال ممن التحقوا بالإمام عليه السلام وكانوا معه.. هذا بالإضافة إلى الأطفال من البنات والبنين ممن تفاوتت أعمارهم ولقد كان لهم جميعاً نصيب وافر مما تُدمى له القلوب من المعاناة والألم مما قد لحقهم في كربلاء وبعدها في السبي.

وأنت إذا ما تأملت هذا النسيج الطيفي المتنوع وما قد قدمه للدين والأمة والإنسانية من دروس وعبر انكشفت لك الحقيقة الدينية الكبرى في أن مسؤولية الإصلاح والتغيير ليس حكراً على شخص أو جهة وإنما هي شاملة لكل من يتوقف على حضوره ومشاركته وتضحيته الدفاعُ الكامل عن الدين والمقدسات وحفظ الأعراض والنفوس والحقوق من أن تنتهك أو يتلاعب بها الطغاة الحاكمون أو أصحاب النفوذ والمصالح الرخيصة وهو ما ينبغي على الأمة بكلّ أجيالها وشرائحها وفئاتها وطبقاتها أن تعيه بعمق وأن ترتب عليه الآثار العملية في نظرتها لواقعها المعاش والموقف منه والتصدي إلى إصلاحه وتغييره بكلّ الوسائل المشروعة والفاعلة وكلّ بحسب قدرته المتاحة وإمكانياته المتوفرة فليس ثمة من هو في حِلٍّ من مسؤولية التصدي للإصلاح والتغيير ما دام أمر الأمة على ما هو عليه وحاجته الماسة لكلّ جهد وسعي ليتغير وليتحول نحو الأفضل دينياً وحضارياً «فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» كما أسس لذلك نبي الإسلام في هذا المأثور من الخبر المشهور.

ما لله ينمو

يكفي للتدليل على كون كربلاء في كلّ ما كانت عليه من أهداف ومنطلقات ووسائل لله – تعالى– وخالصة لوجهه الكريم الالتفاتُ إلى حقيقة ما هو عليه الإمام الحسين عليه السلام من عصمة وتسديد وتأييد إلهي!

«ومثلي لا يبايع مثله» ،وعلى الرغم من سلامة هذا «المسلك العقائدي» في التدليل على هذا المعنى إلا أن ثمة مسلكاً آخر«تاريخي» هو أقرب في طبيعته لما هو مألوف لدى أغلب الناس في فهم الأمور والتدليل عليها ألا وهو جمع القرائن والتأليف بينها للوصول إلى إثبات هكذا مطالب هي في منتهى الخفاء.

فرفضه عليه السلام للمبايعة والمساومة في موقفه المبدئي وعدم تجاوبه مع الأفكار الاستسلامية المثبطة وتوكله وصبره وصدقه مع من حوله «ما دون هؤلاء سر» «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً» وانقطاعه لله تعالى بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن «إنه يعلم بأني أحب الصلاة وقراءة القرآن» وأخلاقياته ومناقبياته «فإني أكره أن أبدأهم بقتال» في المواقف كلّها وصلابته وشجاعته وإقدامه في الحرب وفرارهم من بين يديه «فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه وإن كانت الرجال لتشد عليه فيشد عليها بسيفه فتنكشف عنه انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب..» وإنه عليه السلام كلما دنت منه لحظة الشهادة واقترب منها تلألأ وجهه نوراً «سروراً» وكذا شوقه للقاء الله – تعالى– ورؤية وجه جده وأمه وأبيه! وتسليمهِ لقضائه فيه وحكمه له بل وتصبيره لمن حوله من أهل بيته وأصحابه «صبراً يا بني عمومتي صبرا يا أهل بيتي لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً» كلها شواهد تاريخية دالة على أن نهضته لم تكن إلا غضباً لله –سبحانه– ودفاعاً عن دينه وشرائعه ومقدساته وبالتالي طلباً

للإصلاح «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي» ،و«أني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً» من هذا كله يسهل على كلّ مهتم بالنهضة الحسينية وما قد انتهت إليه من نتائج وحققته من مكاسب فهم السر الأعظم الذي أعطى كربلاء هذه المنزلة و حباها بهذه القدرة غير المحدودة على التأثير والتحريك أوَ ليس «ما كان لله ينمو»؟!

فكيف لا يكون لها هذا الخلود الأبدي وهذا البقاء السرمدي وأن تكون لقائدها العظيم الفذ هذه «الحرارة – العاطفة» في قلوب المؤمنين بحيث «لا تبرد أبداً» ؟!

فهل نتعلم من كربلاء الدم والشهادة ما قد أقامت صروحَها الشامخة عليه من عبودية مطلقة لله وإخلاصٍ له وتفانٍ فيه واعتصامٍ بحبله وثباتٍ على صراطه؟

هذا ما ينبغي أن تتطلع إليه أمة في أفق تاريخها نورُ الحسين عليه السلام وفي بحر حياتها سفينة السبط الشهيد من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى.

الدلالات الأخلاقية

من جملة ما تميزتْ به النهضة الحسينية من معاني واضحة ودلالات بينة في الشكل والمضمون على حدّ سواء ما قد اصطبغت به من «قيم أخلاقية» في الأهداف والوسائل حتى غدت نموذجاً رسالياً فريداً في ذلك كله تماماً كما كان رسول الله ﷺ في دعوته وتبليغه وحركته الإلهية في التزكية والتعليم حيث كان القمة في مكارم الأخلاق ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُق عَظِيم**﴾. وإذا ما قرنتَ هذه الآية بقوله ﷺ في سبطه الشهيد: «حسين مِنِّي، وأنا من حسين» ظهر لكَ صدقُ ما ذكرناه في النهضة الحسينية.

فكيف تجلت القيم الأخلاقية في النهضة الحسينية؟

وأين نجد دلالات ذلك منها؟

مفارقة واضحة المعالم

ولكن قبل البحث عن تلك القيم الأخلاقية التي انتظمت فيها النهضة الحسينية منذ انطلاقتها وحتى انفجارها ملحمة استشهادية دامية ينبغي التأكيد على ما بين «النهضات الإلهية» و«الحركات السياسية» من مفارقات واضحة المعالم فيما يرتبط بمواقف وطريقة كلّ واحدة منهما في

التعامل مع القيم الأخلاقية في المنطلقات والأهداف والوسائل، وسنرى بأنها مفارقات جوهرية متباعدة إلى درجة التباين الكامل.

فبينما نجد النهضات الإلهية التي قادها الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ومن ينتهج طريقتهم في النهوض والإصلاح والتغيير يجعلون من القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية إطاراً لمجمل حركتهم العامة فيما ينطلقون منه ويتطلعون إليه ويتكئون عليه حتى ضربوا بذلك كله أروع الأمثلة في المناقبية والأخلاقية وتركوا وراءهم لمن يأتي من بعدهم مدرسة في الاستقامة على القيم والتمسك بالمبادئ المثلى. أقول: بينما الحال كذلك بالنسبة للنهضات الإلهية في الموقف من القيم الأخلاقية نجد على العكس من ذلك تماماً لدى الكثير من الحركات السياسية التي جعلت من المبدأ الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» إطاراً لها في كلّ ما يتصل بحركتها السياسية ونشاطاتها العملية وهي الفلسفة السياسية التي طالما كانت السبب وراء ما كان يدور في عالم السياسة من مكر وخديعة وإجرام!.

ومن ثم كانت النهضات الإلهية على طول الخط مدرسة شامخة تزخر بقيم الفضيلة والأخلاق والإنسانية بينما كانت تلك المدارس السياسية ذات المصالح العاجلة والمؤقتة مثالاً لكلّ الحركات الانتهازية التي لن تتورع عن ارتكاب أي جريمة في سبيل بلوغ بعض الأهداف الرخيصة.

وإذا كان من المناسب التمثيل على ذلك فإننا نجد «الحزب الأموي» مثالاً مطابقاً لتلك الحركات السياسية الميكيافلية الانتهازية التي لن ترعوي

عن أن تقوم بأي عمل كان شكله في سبيل تحقيق ما تتطلع إليه من أهداف رخيصة وتطلعات هابطة، وتكفي نظرات عابرة في تاريخ الأمويين وما كانوا عليه في مواقفهم من الرسالة ورموزها وحرصهم على الملك والغنائم للتدليل والإثبات فأبو سفيان «رأس الكفر» ومعاوية ابنه «رأس النفاق» ويزيد ابنه السائر على نهج أبيه وجده لم تكن للأخلاقية والمناقبية بل ولا حتى شيء من الإنسانية معنى في أي دور من أدوار حياتهم لذلك كان الأول حرباً للرسالة والرسول ﷺ والثاني حرباً للإمامة والإمام عليه السلام بينما كان ثالثهم هو السافك لدم السبط الشهيد عليه السلام في كربلاء.

لقد بلغ الضلال «الكفر والإلحاد» بهؤلاء ومن لفّ لفهم من بني أمية -كآل بني مروان وعمر بن سعد وشمر وأضرابهم- أن لم يألوا جهداً في سبيل إطفاء نور الله بالقضاء على الرسالة وتحريف الدين والتلاعب بمقدرات الأمة.

هذا، بينما كان خط أهل البيت عليهم السلام الذي نص عليه القرآن «بآية التطهير» وعيَّنه نبي الإسلام في «حديث الثقلين» هو الامتداد الشرعي لكلّ تلك النهضات الإلهية التي بعث بها الأنبياء والرسل عليهم السلام عبر التاريخ الطويل للبشرية، ولقد تبوءوا مكانتهم في الأمة في حماية الدين وحراسة الشريعة بالتعاقب إماماً بعد إمام مباشرة بعد رحيل النبي الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولقد كانوا من جملة ما قد كانوا عليه من كمالات روحية وعلمية وأخلاقية رمزاً للفضائل والمناقب والمُثُل في كلّ ما يتصل بأمورهم

الخاصة وشؤونهم العامة، وبالتالي فلقد كانون بحق تجسيداً كاملاً ومثالاً حياً لما يحملونه من معارف الدين وقيم الرسالة ومبادئ القرآن. وبالرغم من امتداد أدوارهم المتعددة في الأمة لما يقرب من ثلاثة قرون من الزمن، إلا أنهم بقوا خلال هذه المدة الطويلة نسيجاً واحداً من حيث المنطلقات والأهداف وإن تعددت أدوارهم واختلفت باختلاف الأزمان والأجيال وبالتالي بتغير متطلبات الحياة وحاجات الأمة. وأما عما كانوا عليه من خلق رفيع ومبدئية ومناقبية وإنسانية فهي الحقيقة التي لا تكاد تضاهيها وضوحاً حتى الشمس في رائعة النهار! وهو الأمر الذي لم يتمكن من إنكاره أو إخفائه مؤرخ أو يرتاب فيه أو يدعي خلافه عدو أو مناوئ. لقد كانوا مدرسة أخلاقية حيث ساروا على نهج جدهم الرسول الأعظم ﷺ، وبالتالي لم تتمكن السياسة بكلّ ما فيها من سلبية ومخاطر ومنزلقات أن تنال مما كانوا عليه من كمال روحي أو عظمة أخلاقية.

النهضة الحسينية

وليست النهضة الحسينية -التي قام بتفجيرها صرخة دموية مدوية وإلى الأبد الإمامُ الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من المحرم من سنة «٦١» من الهجرة النبوية على صعيد كربلاء من أرض العراق- إلا حلقة من جملة تلك الحلقات الإلهية التي قام بها أئمة أهل البيت عليهم السلام كلّ في زمانه وظروفه الموضوعية خير قيام. بل هي بلا ريب الحلقة الأكثر أهمية وخطورة

وحساسية لما كانت عليه من ملابسات وخصوصيات ولما كان يكتنف الأمة من ظروف وأحوال وكذا ما قد انتهت إليه من نتائج ومكاسب مختلفة ومتنوعة لصالح الدين والأمة والأجيال.

إن زمنها القصير لم يمنع من أن يجعل منها الحدث الأول والأبرز في تاريخ الإسلام منذ رحيل صاحب الرسالة، كما أن ذلك لم يُخِّل بما قد تمكن منه فعلاً قائدُها والمخططُ لها من أن يجعلها ذاتَ كثافةٍ هائلة من الأحداث المترابطة والمتآزرة بما يجعل لها الوزن المطلوب من حيث البطولة والمأساة على حد سواء وبالتالي ديمومة التأثير والعطاء الخالد.

إن الكم الهائل من التفاصيل العميقة الدلالة والمدلول التي انطوت عليها حوادث النهضة الحسينية جعلت منها مخزوناً لا ينضب من الدروس والعبر وينبوعاً لا ينتهي من المكاسب المستجدة عبر الزمن وتلك بعض ملامح معاني الخلود في هذه النهضة الإلهية الخالدة. ومن بين ثنايا تلك الدلالات العظيمة يلوح للدارس والباحث ما تنطوي عليه تلك التفاصيل والأحداث من معاني القيم الأخلاقية التي اصطبغت بها هذه النهضة العظيمة.

وهي وإن كانت كلها مدرسة للأخلاق والفضيلة والمناقب السامية إلا أن الذي يستوقف المتأمل على وجه الخصوص هو جملة المواقف الحسينية التالية:

الشجاعة الأدبية في مواجهة الباطل ورموز الفساد

منذ أحداث السقيفة المشهورة بدأت الأمة تتخذ منحنيات أخرى بخلاف تلك القواعد والأصول التي على هديها أقام نبي الإسلام ﷺ صرح هذه الأمة المرحومة حتى إذا ما انتهت أزِمَّة الأمور إلى يد بني أمية وقال أبو سفيان مقولته المعروفة «تداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنة ولا نار» ،وتمكن معاوية فيما بعد من الاستفراد بإمارة الشام وتحويل الخلافة الإسلامية إلى مُلك عضوض يقوم على الاستبداد والكبت والإرهاب ومصادرة الحريات وإذلال الرعية بل أنه لم يكتفِ بكلّ ذلك حتى عمل كلّ ما في وسعه بالترغيب والترهيب لجعل ابنه – الفاجر الفاسق عديم المؤهلات والكفاءات لأبسط المناصب الدنيوية– وارثاً له في خلافة المسلمين من بعده ونزع البيعة له من الناس في حال حياته بكلّ الوسائل المتاحة على كره من عموم المسلمين وممانعة من أصحاب الرأي والحِجَى .

حتى إذا ما هلك معاوية وهمَّ يزيد بتجديد البيعة لنفسه انتفض أهل الدين وقرر أصحاب الشجاعة الأدبية منهم أن يعلنوا الممانعة والرفض، وكان أول أولئك وأولاهم وأشجعهم هو الإمام الحسين عليه السلام الذي أعلن موقف الرفض للبيعة منذ اللحظات الأولى من وصول نبأ هلاك معاوية إلى إمارة المدينة، وقال مقولته المشهور بمحضر من أمير المدينة و مروان بن الحكم: «ويزيد رجل شارب الخمور وقاتل النفس المحرمة معلن بالفسق،

ومثلي لا يبايع مثله» ، وقال لمروان في اليوم التالي من هذه المواجهة عندما أراد مروان أن يسدي للإمام عليه السلام النصح بزعمه بالمبادرة لبيعة يزيد: «على الإسلام السلام إذا بليت الأمة براعٍ مثل يزيد، ولقد سمعت جدي صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرَّمة على ولد أبي سفيان» .

لقد اتخذ الإمام الحسين عليه السلام قرار الرفض بدافع من دينه وإنسانيته مع علمه المسبق بكل ما سينتهي إليه موقفه الرسالي هذا من نتائج على شخصه وأهل بيته والملتحقين به من الأنصار «شاء الله أن يراني قتيلاً.. شاء الله أن يراهن سبايا» «كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء» . ولأنه يعلم من جده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نداءه للأمة قائلاً: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» لذلك كان موقفه الرافض للبيعة موقفاً ثابتاً لم يتغير ولم يتبدل على طول الخط حتى نال وسام الشهادة على أرض كربلاء.

إن الشجاعة الأدبية التي تجلت في مواقف الإمام عليه السلام لتكشف لكلّ متأمل في هذه النهضة الحسينية العظيمة ما تنطوي عليه شخصية الإمام عليه السلام من قوة الإيمان ونفاذ البصيرة وصلابة وغيرة وحميَّة وإباء لا نجد لها مثيلاً إلا في حياة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

ولأن تمرير البيعة ليزيد يعني اندراس الدين وموت الشريعة، وبالتالي نجاح الحزب الأموي في القضاء على الرسالة وإحياء الجاهلية لذلك كان الموقف الرافض والمعلن الذي لا يجوز التردد فيه بحال «لا والله لا

أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد» «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السِّلة والذلة، وهيهات منا الذلة» .

ولا شك في أن الأمة من يوم السقيفة لو تحلت بروح الشجاعة الأدبية في نصرة الحق ومحاربة الباطل ولم تتهاون في ذلك وتتخاذل عنه ما وصلت الأمور إلى ما قد وصلت من تمكن أهل الضلال وسيادة أهل النفاق وبالتالي إقصاء الحق عن مقره والتلاعب بقيم الدين وحقوق الرعية.

المحافظة على قدسية الأماكن المقدسة

ثمة في عالم المسلمين أماكن قد جعل لها الدينُ الإسلامي قدسية وحرمة خاصتين، وأمَر المسلمين بالتوجه إلى ذلك وأوصاهم بالمحافظة عليها وحذرهم من أن تتعرض إلى شيء من التجاوز أو الانتهاك لما في ذلك من هتك أو هدم لما تمثله تلك الأماكن من قيم دينية ومُثُل إنسانية يُراد لها أن تكون حية وماثلة في حياة الأمة وأجيالها. وذلك من قبيل أماكن العبادة كالمساجد وما أشبه وعلى رأسها المسجد الحرام في مكة المكرمة الذي جعله الله –عز و جل– بيته تشريفاً له ومهوى للأفئدة، وأن من دخله كان آمناً وحرَّم فيه جميع أنواع وألوان المواجهة والعنف أو ما فيه تهديد لقيم الحياة والأمن والاستقرار وبالتالي تنزيهه عن كلّ الأغراض الدنيوية غير المشروعة، وهذه الحقيقة كانت من جملة الحقائق التي لم يقبل الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الخالدة أن يتجاهلها ولو للحظة واحدة

حتى لو تطلب منه ذلك أن لا يحج وأن يخرج من مكة قبل يوم واحد من الوقوف في عرفات حفاظاً على قدسية هذا المكان من أن تنتهك حرمته بقتله فيه أو حصول ما ينبغي أن لا يحصل في حريم هذه البقعة المقدسة مما قد يَخدش قدسيتها ويهدر حرمتها الدينية عند الله -عز و جل-. من هنا لما دنت ساعة الصفر لتنفيذ الأمويين ما قد تبانوا عليه من قتل الإمام الحسين عليه السلام في موسم الحج غيلة ليذهب دمه هدراً أخذ الإمام عليه السلام زمام المبادرة بالمسارعة في الخروج من مكة حفاظاً على قدسية المكان وإفشالاً للمخطط الأموي وفضحاً لما يدبرونه من مؤامرات التصفية الجسدية له وإجهاضهم لما هو عازم عليه من أمر إلهي كبير!.

وهذا كله ما قد صرح به الإمام عليه السلام نفسه وهو خارج من مكة عندما سئل عن سبب خروجه ومغادرته والحجيج يستعدون للتوجه إلى عرفات فكان جوابه واضحاً وصريحاً حيث قال: «أخاف أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت» .فثمة مؤامرة أموية قد نسج حبائلها يزيد بن معاوية نفسه تستهدف اغتيال الإمام عليه السلام في مكة ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة وهو ما قد أماط اللثام عنه الإمام عليه السلام في هذا الكلام الموجه إلى أخيه محمد بن الحنفية عندما كان يحاول جاهداً ثني الإمام عليه السلام عن عزمه في الخروج من مكة والتوجه باتجاه العراق! ومثله الكلام الذي قاله عليه السلام لابن الزبير: «ولئن أُقتَل خارجاً منها – مكة – بشبر أحب إليَّ من أن أُقتَل فيها» .

وهكذا يجد المتأمل بعمق في هذا الموقف الحسيني قيمة أخرى من مجمل ما هي عليه هذه الشخصية الإلهية من قيم أخلاقية ومُثُل إنسانية حيث أبى أن يعرِّض المكان المقدس «الحرم» إلى أي لون من ألوان الهتك والاستباحة لحرمته وهو المكان الذي شاءت له السماء بأن يكون أبداً حرماً آمناً لكلّ من دخله أو لجأ إليه. أضف إلى ذلك كله أنه بخروجه السريع والمفاجئ يكون قد أفشل على الأمويين ما قد خططوا له ودبروه بليل للفتك به وإجهاض حركته النهضوية. وفي ذلك أكثر من درس للسائرين على نهج الإصلاح والتغيير في حفظ القيم وتعظيم المقدسات والوعي واليقظة وسرعة الحركة وأخذ زمام المبادرة في الصراع مع العدو ومواجهته.

الشفافية والصراحة والوضوح مع الأصحاب والأنصار

من جملة ما تختص به الحركات الإلهية في استنهاضها للشعوب والأمم أنها ذات أهداف إستراتيجية في المنطلقات والتطلعات والوسائل فهي لا تهتم بالمكاسب المؤقتة والغنائم العاجلة بمقدار الانتصار للقيم وتقديم النموذج المثالي الذي من شأنه أن يتحول إلى مدرسة في الأخلاق ومنار للاهتداء أما المكاسب العاجلة والانجازات المؤقتة فهي ليست ذات أهمية عندما تكون على حساب الأمور الجوهرية والأهداف الأساسية أو من شأنها أن تقف حجر عثرة أمام ما تتطلع إليه من أهداف كبرى وغايات إستراتيجية. وفلسفة ذلك لا تخفى على من سبر أغوار الحكم والمقاصد

الذي من أجلها كان بعث الأنبياء وإرسال الرسل ﷺ، وهل غايتهم إلا الهداية وإقامة العدل والحكم به؟! فكيف لا يكون بعد كلّ ذلك جوهر رسالتهم ولبّ دعوتهم إضاءة الطريق وتقديم المثال القدوة؟! من هنا، لم يكن رهانهم في لحظة من اللحظات على العدة والعتاد -وإن كانوا يعطون الإعداد لكلّ مواجهة حقها من الإعداد والاستعداد- لكن الملهم لهم في كلّ مواجهة إنما هو ارتباطهم بالله وتوكلهم عليه واعتصامهم بقيم الحق والعدل والفضيلة وهو ما يجعل منهم شخصيات مطمئنة ووقورة في كلّ مواجهة وموطن.

وهذه البصيرة نفسها نجدها ماثلة أمامنا ونحن نجيل الفكر متأملين في النهضة الإلهية التي فجرها الإمام الحسين ﷺ يوم عاشوراء في وجه الأمويين وشيعة آل أبي سفيان، فهي بحق وبلا ريب نهضة إلهية كسائر النهضات الإلهية التي قادها الأنبياء عبر التاريخ من حيث المنطلقات الدينية والأهداف الرسالية وارتباطها الكامل والعميق بقيم السماء ومبادئ الرسالة فلم تكن حركة سياسية بالمعنى الضيق كما أنها لم تكن مجرد مناورة تكتيكية أو صرخة إعلامية بل كانت منذ لحظاتها الأولى وفي جميع مراحلها وأدوارها حركة إلهية لها إستراتيجيتها بعيدة المدى في مواجهة الظلم والتحريف والتزييف الأموي وكشف خط الانحراف عن الرسالة وإحياء الضمائر الميتة وبعث روح الإيمان والدين في الأمة. ومن ثم كان الإمام ﷺ دائماً على علم بأن حركته النهضوية هي أكبر مما قد يخطر

على بال من كان حوله من الرجال بمن فيهم أصحاب الرأي والحِجى ممن كانوا بحجج مختلفة يحاولون أن يثنوه عن الخروج والقيام في وجه الحزب الأموي، وهو ما يفسر لنا تلطفه في الاستماع إلى وجهات نظرهم ومناقشتهم في ما يسدون له من نصح ويبدون له من عواطف، فهو عليه السلام يعلم بأن تكليفه الإلهي في هذه المرحلة بالذات - ضمن موازين الواقع والظاهر على حد سواء- هو القيام والخروج وأنه لا يخفى عليه ما ينتظره وأهل بيته وأصحابه على صعيد كربلاء يوم عاشوراء «شاء الله أن يراني قتيلاً، وشاء الله أن يرى النساء سبايا» . ولذا كانت الشفافية والصراحة والوضوح فيما ستؤول إليه الأمور من أمر المواجهة الدامية من جملة ما اتسمت به هذه النهضة في تعاملها الأخلاقي الرفيع مع الأصحاب والأنصار الذين كانوا معه أو التحقوا به فيما بعد في مكة أو في الطريق، فقد كاشفهم الإمام عليه السلام وجعلهم أمام الأمر الواقع مما ستنتهي إليه الأمور في هذه النهضة الإلهية وربما كان ذلك في مواطن عديدة ولكن أهمها مما قد ذكره المؤرخون موطنان:

الأول: فور تناهي نبأ مقتل مسلم وهاني إليه في الكوفة والانقلاب الكامل للأوضاع فيها وسقوطها بيد عبيد الله بن زياد وسيطرته الكاملة عليها حيث أظهر الإمام عليه السلام ذلك لكلّ من كان معه ولم يخفهِ وبذلك جعلهم أمام آخر التطورات وأهم المستجدات المفصلية.

والثاني: ما كان منه ليلة العاشر من المحرم -أي قبل سويعات من

المواجهة الحاسمة- حيث كاشفهم بما ستؤول إليه الأمور «غداة غد»، وأنه سيُقتَل كلّ من بقي معه فمن شاء الانصراف فليفعل «ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء غداً، وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام... فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري» ،وأظهر لهم أنهم جميعاً في حل من بيعته وليس عليهم من ذمام.

فهذا كله من الإمام عليه السلام يكشف للمتأمل بأن تلك إحدى أهم القيم الأخلاقية التي قامت عليها نهضته المباركة حيث كان في منتهى الصراحة والوضوح حتى في أصعب الظروف وأحلك الأوقات.

التمسك بقيمة السلام، ورفض الابتداء بالحرب

أصالة السلام في النظرة للحياة والموقف منها هي القاعدة الأولى التي تنطلق منها النهضات الإلهية في الإصلاح والتغيير، ولذلك فهي لا تلجئ إلى المواجهة العسكرية إلا في حالات قليلة جداً وضيقة ومحدودة من قبيل دفع الحرب أو رفعها فيما لو انحصرت الوسيلة والآلية في ذلك حيث لا مناص من التلويح بالحرب أو ممارستها لتحقيق إحدى الغايتين.

ولنا في السيرة النبوية لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله خير مثال، ففي ما يزيد على العقدين من الزمن حيث اضطر إلى المواجهة العسكرية مع قريش وأحلافها في أكثر من ثمانين موطناً لم يكن بينها مواجهة عسكرية واحدة

كانت ابتدائية من جهة المسلمين بل كلها كانت دفاعية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، كما أنه ﷺ مع اضطراره للدخول في تلك المواجهات الدامية كان أحرص ما يكون على تضييق دائرتها وتقليل خسائرها وتقليص زمنها تمسكاً بروح الدين الإسلامي المتمثلة في مبدأ السلام.

من هنا، كان الموقف المبدئي والأخلاقي الرافض للعنف واستعمال القوة – من دون حاجة أو ضرورة ملحتين يمكن أن تبررا اللجوء إلى شيء من ذلك – هو الموقف الثابت في العقيدة والشريعة في الإسلام. وفي الحقيقة إن هذا الموقف الأصيل وأمثاله مما تدل عليه المبادئ والقيم الإلهية عموماً والإسلامية منها خصوصاً ينسجم تمام الانسجام مع الأهداف العليا والغايات السامية التي جاءت الأديان الإلهية لتحقيقها في عالم الإنسان حيث حرصها الشديد على تحقيق الأمن إلى جانب الإيمان والسلام على طريق الحياة الكريمة واحترام الحقوق والحريات وكلّ ما من شأنه أن يوفر الرخاء والاستقرار المعنوي والمادي في حياة البشرية جمعاء.

ومن يُمعن النظر في روح النهضة الحسينية – التي هي بلا ريب من سنخ تلك النهضات الإلهية بل هي الوارثة لها والمكملة لكلّ ما بدأته وأنجزته من قبل– يجد بأنها قد أعطت هذا المبدأ حقه من الاحترام والتقدير وكان بالنسبة لها الأصل الأصيل والإطار الثابت فيما هي عازمة عليه من تغيير وإصلاح، فابتداءً من قول الإمام الحسين ﷺ في وصيته المشهورة: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح

في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين» ، وانتهاء بموقفيه المشهورين في النهي عن أن يبدأهم بقتال مهما لاح له من نواياهم العدوانية. فالموقف الأول: عندما التقى بالحر بن يزيد الرياحي على رأس جيش من ألف فارس في مهمة من عبيد الله بن زياد ليمنع الإمام ﷺ من الدخول إلى الكوفة أو الرجوع إلى المدينة حتى يأتيه أمره، فكان مما قاله زهير بن القين في هذا الموقف: يا ابن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من لا قِبَل لنا به! فقال الحسين ﷺ: «ما كنت أبدأهم بقتال» ، فعلى الرغم من أن الإمام ﷺ – بحسب الظاهر– قد أقرَّ بصحة وجهة نظر زهير من الناحية العسكرية إلا أنه أفهمه بأن ذلك بخلاف الموقف الشرعي في مثل هذه المواقف وأنه ليس ثمة ما هو مبرر للخروج عن القاعدة الأصل في التمسك بالسلام.

والثاني: كان يوم العاشر من المحرم وقبيل نشوب الحرب حيث نادى شمر بأعلى صوته: يا حسين، تعجَّلتَ بالنار قبل يوم القيامة، فقال الحسين: من هذا؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن! قيل: نعم. فقال: يا ابن راعية المعزى، أنت أولى بها مني صِليًّا. ورامَ مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم، فمنعه الحسين، وقال: «أكره أن أبدأهم بقتال» . وحيثية منع الإمام ﷺ لمسلم من أن يرمي شمر بسهم هنا هي نفس الحيثية التي جعلته يمنع

زهير في الموقف السابق من أن يفكر في هذا الأمر.

ويظهر للمتأمل في كلا الموقفين مدى حرص الإمام الحسين عليه السلام في التمسك بمبدأ السلام ورفضه في أن يكون هو البادئ بالحرب مع قوم لا شك في أنهم عازمون على قتاله وقتله وأنه لن يصرفهم عن ارتكاب هذه الجريمة أي صارف كان. «لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منه حتى يقتلوني» .

ومن جملة تلك المواقف الدالة على القيم الأخلاقية في النهضة الحسينية كذلك ما يمكن الإشارة إليه كعناوين عامة على النحو التالي:

- الرفض الصريح

صدقه ووضوحه في قوله لأمير المدينة لما طلب منه إعطاء البيعة ليزيد: «مثلي لا يبايع سراً، فإذا دعوتَ الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً»، وفي نهاية هذا المجلس – حيث أعلن رفضه للبيعة بعد تدخل من مروان بن الحكم يأمر فيه أمير المدينة بحبس الحسين عليه السلام حتى يأخذ البيعة منه وإلا ضرب عنقه – قال الإمام عليه السلام مكملاً لهذا المشهد: «ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة» . أي من الخلافة ثابتة له ثبوتاً حقيقياً وشرعياً لا ريب فيه.

- الاستجابة الرسالية

استجابته لاستغاثة أهل الكوفة وندائهم له بالقدوم عليهم إماماً وأنهم

لن يعدلوا به غيره، وأنه قد أينعت الثمار واخضرَّ الجناب وأنهم جند له مجندة، فليس من العدل والإنصاف عدم الاستجابة لهم بالنظر في أمر دعوتهم له والعمل على التثبت مما أظهروه له من الولاء والنصرة مما تطلَّب منه أن يبعث ثقته والمفضَّل من أهل بيته مسلم بن عقيل عليه السلام للقيام بهذا الواجب وإنجاز مهمة التثبت مما قد جاءت به رسلهم وتضمنته كتبهم وحمَّله كتاباً جاء فيه:«فإن كتب أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم وشيكاً إن شاء الله!» . وفيه كشف عما يراد من بعث مسلم إلى أهل الكوفة وأنه ليس إلا التثبت من صحة ما قد جاءت به كتبهم للإمام الحسين عليه السلام لا أكثر ولا أقل.

- **إتمام الحجة**

إعطاء الخصوم «الأعداء» ما لهم من حق عليه في الموعظة والتوعية والتوجيه بما له عليهم وما لهم عليه من حقوق واستغلال كلّ الفرص المتاحة للقيام بذلك ابتداءً من المدينة كما هو الحال في حواره مع والي المدينة ومروراً بمكة مع كلّ من التقى به أو سأله عما هو عازم على القيام به وانتهاءً بما قاله للحر وجيشه وما أسمعه جيش العدو وقادته كعمر بن سعد من خطب بليغة ومواعظ بالغة!

وبالفعل استطاعت تلك الخطب أن تؤثر في النفوس المستعدة وأن

تحدث فيها تحولاً إلى الحق كما رأينا ذلك في الحر الرياحي وما يقارب ثلاثين فارساً التحقوا بمعسكر الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء.

ومن جملة ما قاله في هذا السياق يوم العاشر وقبيل المواجهة العسكرية بلحظات: «أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي إليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النَّصَف من أنفسكم كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النَّصَف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون..» .

هذه بعض الدلالات الأخلاقية في النهضة الحسينية، ولا شك في أنها بعضٌ مما يمكن أن يعثر عليه الباحث والمتأمل وهو يتصفح تفاصيل هذه النهضة الإلهية الخالدة وهي المدرسة الشامخة التي تزهر بالمناقب وتزخر بالفضائل ومكارم الأخلاق في كلّ خطوة من خطواتها وفي كلّ جهة من جهاتها التي لا تحدّ ولا تعدّ!.

كانت كربلاء منذ لحظتها الأولى أكبر من أن يحيط بها عقل أو أن يستوعبها قلب أو أن يسبر أغوارها جيل، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! وهو ما تتكشف لنا أبعاده كلما أطلنا التدبر في الكلمات المأثورة: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله»، «إن للحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»، «ولأبكين عليك صباحًا ومساءً»، وما أشبه ذلك مما هو مقطوع الصدور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين عبروا من خلال كلماتهم ومشاعرهم عما تنطوي عليه «النهضة الحسينية» وأحداثها المفجعة من حقائق ومقاصد وأسرار!.

Prestige Design